المحضارة السادسة:الاستشراق والأدب العربي المعاصر

ظهر الاهتمام بالدراسات الأدبية والنقدية في وقت مبكر من دراسات المستشرقين في القرنين الأخيرين، ولكن هذه الدراسات كانت ضئيلة جداً بالنسبة للدراسات الأخرى؛ لأنها كانت تحتاج إلى الإحاطة الكاملة بجميع فروع اللغة العربية مثل: الصرف والنحو والترجمة والبلاغة العربية، بما فيها من معرفة الأوزان الشعرية وأساليب الشعراء في دواوينهم، وكذلك فهم معاني الكلمات والعبارات المجازية الواردة في آثار الكتاب والأدباء العرب القدامى، حتى يستطيع النقاد وباحثوا الأدب التطبيقي طرح آرائهم، وهذا ما يفقده عموماً أكثر المستشرقين.غني عن البيان أن بعض المستشرقين قام بدراسات نقدية وتطبيقية فضلاً عن دراساتهم التاريخية والأدبية الأخرى، و إن كانت هذه الدراسات والآثار قليلة بالنسبة لباقي الدراسات، ولكنها قويةً جداً بمنهجها العلمي، وربما فتحت آفاقاً جديدة أمام الأدباء والكتّاب العرب المعاصرين في النقد الأدبي والدراسات التطبيقية العلمية في الأدب العربي. وفيما يلي نماذج لهذه الدراسات :

ـ ويليام جونز مستشرق إنجليزي ألف كتاباً في النقد والأدب التطبيقي في ستة مجلدات تحت عنوان *دراسات في الشعر الآسيائي*، والذي طبع في لندن عام 1774م.

ـ هاميلتون جيب المستشرق الإنجليزي الشهير والذي ألف كتاب التعريف باللغة العربية وآدابها ومدى تأثرها بأدب الغرب بعد عصر النهضة المطبوع في لندن 1933م.

ـ يول كزنوفا 1926م مستشرق فرنسي الجزائريّ المولد، تعلَّم بمدرسة اللغات الشرقية الحيّة. عُيّن أميناً لقسم النقود الشرقية، ثم عُيّن أستاذاً للغة العربية وآدابها بجامعة فرنسا، ثم عُيّن منتدباً لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية. من آثاره محاضرات بالعربية عن العلاقة بين الأدبين العربي والأروبي. وطبعت هذه المحاضرات فيما بعد في كتاب تحت العنوان المذكور في القاهرة (د.ت).

–مقالات أدبية تحت عنوان صورة الأروبيين في الأدب القصصي والمسرحي العربي الحديث للمستشرقة الألمانية روتراود فيلاندت. طبعت في مجلة الاستشراق، بن، 1980م.

–مقالات نقدية أدبية في مجال الأدب العربي الحديث للكاتب الأمريكي المعاصر روجر آلن، جامعة كلمبيا، 1998م.

وما من شك أنه ومنذ بداية الاستشراق البعيدة والغرب يهتم بكل ما صدر عن المسلمين، فهم الذين أنشؤوا مئات الأقسام العلمية، كما تحتفظ مكتباتهم بألوف المخطوطات في شتى المعارف. وقد ثبت أن بعض الأدباء في الغرب تأثروا بالأدب العربي في عصور ازدهار الأمة الإسلامية. والاهتمام بالأدب العربي في الغرب لا ينبع من ترف فكري، ذلك أن دراسة الأدب مهمة لدراسة الشخصية التي أنتجت هذا الأدب وذلك

كما قال سمايلوفيتش فالأدب بالنسبة للعرب "يعد ديوانها، ويتأمل تاريخها، ويبرز عقليتها، ويمثل انفتاحها، ويدفع بقدمها إلى الأمام...وظل الأدب العربي بشعره ونثره من الأمور التي شغف بها الاستشراق محاولاً إلى معرفة العرب واتجاههم"[1]

والأدب كما يقول عاصم حمدان "في كل العصور وعند جميع الأمم- هو تعبير عن هوية- أي أمة – ومنطلقاتها الحضارية وإرثها التاريخي، ولهذا كان اهتمام الغربيين كبيراً بالتراث العربي القديم، لأنه كان تعبيراً حقيقياً عن هويتنا الحضارية. ولذلك اعترف أكثر من مستشرق بتأثر الغرب بالأدب العربي القديم ومن هؤلاء مثلاً إديموند بوزوورث Edmund Boseworth – رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر بتأثير الأدب العربي في الأديب الإنجليزي صاحب كتاب "قصص كانتير بري Canterbury " Tales.وغيره مثل بوكاتشيو في مجموعته المعروفة باسم ديكاميرون "[2]

ومن الأسباب الأخرى التي حالت دون الاهتمام بالأدب العربي الحديث ما أشار إليه سمايلوفتيش في رسالته:

1- حداثة البحوث في هذا المجال.
2- أن الأبحاث في الاستشراق " لم تتبلور بعد فكرياً أو منهجياً أو فلسفيا".
3- اهتمام الغرب يتركز في الوقت الحالي على النواحي العقيدية والدينية والسياسية
4- عدم وجود هيئة تتبع بحوثه التي تتعلق بالاتجاهات الحديثة في العالم العربي الإسلامي.
5- لم يستطع الأدب الحديث بعد أن يفرض وجوده على هيئات العلم في العالم، "وإن خطى خطوات جبارة".
6- أن مراكز الاستشراق نفسها لا تشجع معرفة طلابها بإنتاج الأدب العربي الحديث حيث إنها تفرض عليه البحث في الأدب القديم

وما من شك أن هذه الأسباب لم تعد كلها صحيحة في العصر الحاضر، فقد ازداد عدد مراكز البحوث الغربية والأقسام العلمية التي تهتم بالأدب الحديث ولكنه اهتمام انتقائي كما سنرى.

وقد اهتم صالح جواد الطعمة بمسألة الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية، وذكر أن المسؤولية تقع على عاتق المستشرقين في تعريف قرائهم بالأدب العربي الحديث، ولكنهم "كانوا ولا يزالون يوجهون

[1]أحمد سمايلوفيتش . فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. القاهرة : المؤلف، بدون تاريخ. ص492.

[2]عاصم حمدان. "لماذا ومتى يهتم الأوروبيون بتراثنا." في صحيفة المدينة المنورة ، 1408/11/22هـ ، (ملحق التراث) انظر أيضا كتاباً صدر للمؤلف حديثاً بعنوان دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي . المدينة المنورة ، نادي المدينة المنورة الأدبي. ص، 1418 .

جل اهتمامهم العلمي إلى غير الأدب من أوجه الحياة العربية المعاصرة، ولهذا لم يترجم إلاّ عدد ضئيل من الأعمال الأدبية الحديثة."[1] ويضيف بأن ما ترجموه أيضاً لم يسوّق تجارياً ولذلك لم يجد الاستجابة المشجعة لدى النقاد أو الأدباء غير العرب إلاّ في حالات نادرة"[2]

ومرة أخرى نؤكد أن الاهتمام بالأدب العربي الحديث قد ازداد على مر السنين فهناك أكثر من دورية تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا تتخصص في الأدب العربي أو الدراسات العربية فهناك مثلاً (المجلة الدورية للدراسات العربيةArab Studies Quarterly ، ومجلة المختار في دراسات الشرق الأوسط Digest of Middle East Studies التي بدأت في الصدور منذ ست سنوات. ومجلة آداب الشرق الأوسط "أدبيات" (Middle East Literature) التي تتعاون في إصدارها جامعة أكسفورد البريطانية، وجامعة داكوتا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية والتي بدأت في الصدور منذ عام 1996م

إلا أن الواقع يؤكد بأن الترجمة محدودة وأن الاهتمام قليل بل إن الاهتمام الغربي انتقائي وقليل بالنسبة لما يصدر في العالم العربي ولذلك أسبابه العديدة.

ومن نماذج الاهتمام المتحيز ضد الأدب العربي ما كتبه ريجيس بلاشير زاعماً أن الأدب العربي يفتقد عموماً إلى الإبداع والعبقرية وان "الفعالية الأدبية، في أدوار عدة، بل في الأدوار الهامة تظل جماعية بمعزل عن كل خلق فردي حقاً، وإذا ما اتفق أن وجدنا خلافاً لذلك فإننا لا نلبث إذا أمعنا النظر أن ندرك أن الظاهرة حركة تجديد أوجدتها فئة أو جماعة أدبية أو هي صفة خاصة إقليمية... وعلى الجملة فالأدب العربي – وقد نلحق به آداب الشرق الأدنى- لم يعرف إلاّ في ومضات خاطفة، تلك الحاجة المرهقة الخصبة للتجديد، والتميز، والتعارض "[3].

ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الرأي الذي قال به بلاشير إنما ينطلق من النظرة الاستعلائية التي تطبع الغرب عموماً فلا يرون عبقرية إلاّ عبقريتهم أو عبقرية من كان مقلداً لهم .

وقد كان للمستشرقين الذين درّسوا في الجامعات المصرية وكذلك الطلاب الذين ابتعثوا إلى الغرب لدراسة الأدب العربي على أيدي المستشرقين دورا في تأثر البعض في إفساد "الذائقة الأدبية" كما يقول

---

[1] صالح جواد الطعمة . الشعر العربي الحديث مترجماً.النادي الأدبي، الرياض،1981م، ص 10.

[2]المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3]ريجيس بلاشير ،تاريخ الأدب العربي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، الدار التونسية للنشر، تونس ، والجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986ج1، ص 14.

الأستاذ محمود شاكر –رحمه الله– وهو ما عانى منه طيلة حياته وظهر واضحاً في معاركه الأدبية المتعددة ومنها على سبيل المثال مع لويس عوض التي نجد تفاصيلها في كتابه (أباطيل وأسمار) ومع طه حسين في كتابه المتنبي ورده على طه حسين في قضية الشعر الجاهلي ونظرية الانتحال[1] .

لغة الكتابة والشعر الحر عند المستشرقين

ومن الجوانب الأخرى التي ياهتم بها الغالبية العظمى من المستشرقين في الأدب العربي الحديث، هو اهتمامهم بمن يكتبون أدباً في اللغات الأوروبية، وهؤلاء يطلق عليهم عبد الله الركيبي (المرضي عنهم) ، وفي مقابل هذا الاهتمام فهناك إهمال أو حتى عداوة لمن يتحول عن الكتابة من الفرنسية إلى العربية، أو إذا خالف أفكارهم ويذكر الركيبي من هؤلاء مالك حداد الذي لا يكاد يذكر اسمه عندنا إلاّ نادراً ،أما في الضفة الأخرى فلا يكاد يذكر اسمه إطلاقاً لسبب معروف وهو دفاعه عن العربية ورفضه الكتابة بالفرنسية بعد الاستقلال، في حين أن غيره يشيدون به محلياً وفرنسياً مثل كاتب ياسين ومولود معمري وبن جلون وغيرهم. ويستشهد الركيبي بما كتبه رشيد بوجدرة بأن الفرنسيين يشجعون الكتابة الفرنسية لأن هؤلاء يكتبون نصوصاً سياسية تروق الفرنسيين وتروّج أفكارهم، "وبعضهم الآخر يكتب القصة بطريقة فنية جميلة تحمل أفكاراً غربية وموجهة أساساً للاستهلاك الغربي"[2].

الاستشراق و الدعوة إلىالعامية.

من القضايا التي اهتم بها الاستشراق استخدام الكتاب العربي اللغة الفصحى في الإبداع الأدبي، سواء كانت قصة أم رواية أم مسرحية. وقد جعلوا هذه القضية من القضايا التي أولوها اهتماماً كبيراً. وقد ناقش أحمد سمايلوفيتش هذه القضية في كتابه فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي الحديث وأكد من أنها من أخطر الهجمات التي تعرضت لها اللغة العربية، ونقل عن عثمان أمين قوله "إن حملاتّ التغريبّ التي شنها النفوذ الغربي وأعوانه في آسيا وأفريقيا مصوباً هجماته إلى التراث العربي الإسلامي بوجه عام و إلى اللغة العربية بوجه خاص"[3].

وقد أصبح هذا الأمر واقعاً في الجامعات الغربية فمن العجيب أن يكتب أحمد نظمي بأن الجامعات

---

[1]انظر كتاب محمود شاكر . رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. دار المدني، جدة ، 1987.

[2]عبد الله ركيبي. الفرنكفونية : مشرقاً ومغرباً، دار الأمة ، الجزائر ، 1993 ص 94.

[3]سمايلوفيتش ، فلسفة الاستشراق ، ص 668 نقلاً عن عثمان أمين . فلسفة اللغة العربي،الدار المصرية للتأليف، القاهرة ، 1965 ، ص3-4. وقد ذكر مراجع أخرى مهمة في هذا المجال منها كتاب عائشة عبد الرحمن "لغتنا والحياة"، وكتاب نفوسة زكريا سعيد ."تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر". وكتاب محمود تيمور ."مشكلات اللغة العربية" وغيرهم.

الغربية تنوي إنشاء كراس للهجات العامية، فهي قد فعلت ذلك بالفعل، وقد أنشأت معاهد الخدمة الخارجية في بعض البلاد العربية لتدريس موظفيها اللهجات المحلية ومنها معهد الخدمة الخارجية في تونس الذي يقدم دورات في اللغة المحكية التونسية، وقد درس في هذا المعهد نائب رئيس مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة بيركلي لورانس ميشيلاك Laurence O. Michalak فهو قد لا يستطيع فهم الفصحى لكنه يفهم العامية التونسية أفضل مما يفهمها عربي من الجزيرة.

وتأكيداً لهذا الاهتمام فقد بدأت الجامعات في نشر كتب نحو متخصصة في اللهجات وقواميس خاصة بكل لهجة من العربية إلى الإنجليزية وبالعكس، ومن ذلك ما نشرته جامعة جورج تاون حديثاً ومنها هذه الكتب:

-1مرجع في قواعد اللغة العربية السورية تأليف مارك كوول . Mark W. Cowell وجاء في تعريف الكتاب أنه يصلح للطلاب المبتدئين في اللغة ومرشداً في هذه اللهجة للمتخصصين في اللغة العربية وفي اللسانيات.

-2مرجع موجز لقواعد العربية المغربية: تأليف ريتشارد هارل Richard S. Harrel وهذا مرجع عملي للطالب الذي حصل على مبادئ العربية المغربية.

-3قاموس العربية العراقية(عربي —-إنجليزي) تحرير وودهيد ووين بين D.R. Woodhead and Wayne Beeneو وآخر (إنجليزي- عربي) كلاراتي وكارل ستوواسر ورونالد وولف .B..E. Clarity, Carl Stowasser. And Ronald G. Wolf.

الاستشراق والاهتمام بالشعر الحر أو المرسل

ومن الجوانب التي يهتم بها الاستشراق الحديث ما يطلق عليه الشعر الحر أو المرسل أو المنثور ويقول في ذلك صالح طعمة "لوحظ في السنوات الأخيرة إقبال متزايد على ترجمة ما نسميه بـ(الشعر الحر) بفضل الحضور أو الإسهام العربي في الغرب فتعددت الأعمال المترجمة لأمثال أدونيس (علي أحمد سعيد) وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ومحمود درويش وصلاح عبد الصبور"[1]وقد لاحظ هذا الأمر أحمد سمايلوفيتش منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، حيث ذكر عدداً من الدراسات الاستشراقية حول الشعر العربي المعاصر واستنتج قائلاً: "وهذا مما يدل على اهتمام الاستشراق البالغ بهذين الاتجاهين الرئيسين

[1]صالح جواد الطعمة . الشعر العربي الحديث مترجماً.النادي الأدبي، الرياض، 1981م ، ص 10.

(الشعر المرسل والشعر الحر) في الشعر العربي المعاصر وتتبع الاستشراق المستمر له"[1].

[1] أحمدسمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق ، ص 538.